فلسفة اللغة عند جورج بيركلي
– دراسة تحليلية– مقارنة

أ.م.د.كريم حسين الجاف

م.د.عدي غازي فالح(*)

كلمـــات مفتاحية:اللغة، جـورج بيركلي، دراسة تحليلية ومقارنة- فلسفة

ملخص البحث

هـذا المقـال معنـي بدراسـة اللغـة عنـد الفيلسوف المثالي التجريبي جورج بيركلي من خلال اسـتعراض جملة مـن الدلائل والبراهين الواضحـة في ضوء معطيات فلسـفته اللغوية، وكيفية نقاشـاته لأفكار الفلاسفة السابقين عليه. والغـرض المعني من هـذا المقال، هو توضيح مناقشـات بيركلـي التحليليـة وبمـا قدمـه من نظرية حول الأسـماء واللغة والأفكار، وناقش اللغة الرياضية والعلميـة، وقدم لغة «بصرية- مرئيـة»، وهذه الأخيرة، وبعيداً عن الأسـلوب الفلسـفي، أعتبرهـا غاية فـي الروعـة، لأنها تصف لنا «لغة العيون» لغة الحب والأحساس.

(*) الجامعة المستنصرية - كلية الاداب

المقدمة

يُعـد جـورج بيركلـي(١٦٨٥- ١٧٥٣م) فيلسـوف إنكليزي إيرلندي، وأسقف أنجليكاني. وهو من مسـاندي الرؤيـة الجوهرية في القرن الثامـن عشـر للميـلاد؛ إذ ادعـى عـدم وجود شـيء اسـمُه مادة، وأن ما يراه البشر ويعُدونهُ عالمهم المـادي لا يعدو أن يكـون مُجرد فكرة في علم الله. وله مؤلفـات في الرياضيات وعلم المعرفـة. من آثـاره: بحـث لمبـادئ المعرفة الإنسـانية، والمحـاورات الثـلاث بين هيلاس وفيلونـوس، ومقـال نحـو نظريـة جديـدة في الرؤية، وألسيفرون أو الفيلسوف الصغير. أحد الفلاسفة في عصر التنوير، والذي اشتهر بآرائه اللاهوتية الميتافيزيقية الرافضة والناقدة للآراء فلاسفة التنوير السابقين عليه كأمثال(ديكارت، ومالبرانـش، وهوبـز، ولـوك) والمفكريـن الأحرار، وهؤلاء بحسـب رأيـه يتبنون أفكاراً تخـرج عن المألوف والعـرف المتبع، إلا وهو الولاء التام للكنيسـة. هذا الـرأي يثير نوعاً من القلق والدهشـة لدى المهتمين والقراء لإسـلافه

من الفلاسفة، ويبعث لصاحبه وهو(بيركلي) نوعاً من الريبة لمنظومته الفلسفية، وأن حظيت باهتمام ومتابعة من الفلاسفة اللاحقين لفلسفته المثالية، إلا أن نقول بأن تجريبيته تثير هاجس من التطرف. فهو يُعتبر أبا المثالية الحديثة، جنباً إلى جنب مع جون لوك وديفيد هيوم، وهو أيضا شخصية رئيسية في الحركة التجريبية البريطانية.

عرف عن بيركلي بأنه فيلسوف ميتافيزيقي بارع، أشتهر بالدفاع عن المثالية، وأثر على فلاسفة أمثال هيوم وكانط. فقد هاجم العديد من المناهج البديهية التي تطرح أفكاراً ورؤى تجريدية، وما شابه ذلك. فإلى جانب الاهتمام بالفلسفة، كانت لديه اهتمامات عديدة منها، في علم النفس والرياضيات والأخلاق والفيزياء والدين وغير ذلك. فلا ننسى كانت أراءه بشأن الدين أساسية لأنها كانت المنطلق الحقيقي في نقاشاته الفلسفية. وعليه، فإن المنهج الذي استعمله هو المنهج التحليلي في عرض أفكار هذا المفكر بالأعتماد على مؤلفاته الرئيسية الفلسفية. كما اعتمدت على المنهج المقارن بين بيركلي وأسلافه السابقين عليه ونخص بالذكر جون لوك. وكل هذه التفاصيل سنتعرف عليها في سياق دراستنا هذه.

أولاً- الغرض الرئيسي من اللغة بحسب وجهة نظر بيركلي:

في حيثيات التحليل الفلسفي للغة نجد محاولة الفلاسفة على مر العصور كانت الغاية الأساسية منها اكتشاف ما يميز الإنسان والدلالة عليه ليبقى عنصراً جوهرياً أصيلاً يتميز بجملة من الخصائص المتفردة، فوصفوه مرة بأنه «كائن عقلاني» و «حيوان سياسي»... أما في العصور الحديثة فإن كثيراً من المدققين والمهتمين من علم النفس إلى علم التربية ومن علم الاجتماع إلى علم اللغة، قد أقروا بأن القدرة اللغوية هي الصفة الأسمى التي تميز الإنسان[1]. ففي الفلسفة الأنجلو سكسونية فقد عمد جورج بيركلي إلى البحث عن المعاني الدقيقة للكلمات وذلك بوجوب التفكير قبل التعبير، وفي نظره فإن تحديد المعنى يتم بتحليل واكتشاف جزئياته، وفق تصوره فأهم غاية للغة هي التواصل عن طريق أفكار ندركها بواسطة ألفاظ، والأفكار عنده نتاج أحاسيس ندرك بها العالم المحسوس[2]؛ وفي ضوء هذا فقد أشار جون لوك في أطروحته الهادفة لبناء فلسفة لغوية إلى ما مفاده بأن «الكلمات هي علامات للأفكار». في البداية، أيد بيركلي هذا الرأي، لكنه سرعان ما رفضه، تماماً كما جاء لرفض وجهة نظر لوك بأن الكلمات العامة هي دلائل على أفكار مجردة. واتفق مع لوك، للتأكد، من أن معرفتنا بالأجسام تعتمد على الأفكار التي نحصل عليها من حواسنا، وأن الكلمات التي تدعي الإشارة إلى الجثث يجب أن تدعم مثل هذه الأفكار إذا كان لها أن تكون ذات مغزى[3].

ومن ثم زعمه أن هذه المادة هي مصطلح لا معنى له يتحول على زعمه، على الرغم من أن الفلاسفة اعتمدوا على الحواس لتبرير الإيمان بالمادة، فنحن في الواقع لا نحصل على أي فكرة عن المادة من حواسنا أو من ما يمكننا استنتاجه من تصوراتنا المنطقية. كما رأينا، مع ذلك، كان يرى أن الكلمات التي ترمز إلى الأرواح وعملياتنا العقلية ليست علامات للأفكار، ومع ذلك فهي ذات مغزى لأننا من خلال وعينا الاستباقي بأنفسنا نحصل على مفاهيم لما هي الروح وحالتها.

كلمـات مثل «العقـل»، «إدراك»، «التفكير»، «الرغبـة» هي ذات مغزى لأنها علامات على هذه المفاهيم. ومن ثم، ليسـت كل الكلمات ذات المغـزى هـي علامات الأفـكار. هناك سـبب آخـر، كما يعتقد، لمـاذا «التواصل بين الأفكار التي تميزها الكلمات» ليس «الطرف الرئيسـي والوحيـد للغة»[٤]. وإن هدف المتحدث ليس في بعـض الأحيان هـو نقل فكرة إلى مسـتمع، بل «رفع بعض الشـغف، أو الإثـارة أو الردع من أي عمـل، أو وضع العقل فـي ترتيب معين « جميع الاسـتخدامات الشـرعية والمهمة للغة... في الواقع، اعتـرف بيركلي بمجموعة متنوعة مـن «الألعـاب اللغويـة»، لاسـتعمال تعبيـر فيتجنشـتاين، والبعض منهـا فقط هو هدفهم في نقل الأفكار. لكن في حين أن كل الكلمات ليست بوادر أفـكار، إلا أن بيركلي يرى أن هذه اللغة هـي القاع، وهو نظام معقد مـن العلامات التي ترتبـط في الطـرق العاديـة، علـى الرغم من الاعتباطي، مع ما تشـير إليه. يمكـن للكائنات الذكية فقط اسـتعمال نظام معقد للغاية للتواصل مع الآخرين. ويخلص إلى أن استعمال اللغة من قبل البشـر هو أحد الأشـياء التي تثبت لنا أنهم أيضـا أرواح عقلانيـة ذكية[٥]. هـذا ما أدى به إلى نظرية الرؤية بررت لتوسـيع على اقتراح لأول مرة في نظرية جديدة للرؤيا. سوف نقاش بتفاصيل أكثر عن موضوع «اللغة البصرية».

إن التفسـير الفلسـفي للفكر واللغة قائم كما هـو معـروف علـى تواصـل المعنـى، ولهذا يرى المحللين اللغويين أن المشـكلات الفلسفية هـي لغويـة أكثر أو أقل، أي نشـأت من سـوء اسـتعمال الكلمـات والمفاهيم فـي لغتنا. وعليه إن تقويـض المحللين بتحليل وتوضيـح اللغة وفهم العالم(بوسـاطة من خلال اللغة) قد تقسـم إلى قسـمين من الفكـر، وهما التحليـل اللغوي العـادي والتحليـل المثالي. يصـر تحليل اللغة العادي(الذي ابتكره كل من بيركلي وريتشـارد ريبل وجون أوسـتن) على العـودة إلى المعنى العادي للكلمات والمفاهيم التي لم يتم تشـفيرها من خلال التشويش الفني لمختلف الاستخدامات التأديبيـة[٦]. وكان رائـد محللي اللغـة العاديين بيركلي، قد قال: « فالجزء الأكبر من البشـرية الذي يسـير على الطريق السامي للحس السليم البسـيط هـو فـي معظـم الأحيـان لا يزعجها الاسـتثارة، الجـدل، والخلافـات وارتبـاكات رجال الرسائل أو الفلاسـفة الذين يعقدون مادة بسـيطة من خـلال اسـتعمال اللغـات الباطنية النـادرة»[٧]. في الاسـتعمال العـادي للكلمات، المفاهيـم والجمل، المتحدثيـن للغة الإنجليزية، يقولون، فهم أنفسـهم عندما يقول أحدهم «القط في الحقيبة»، يفهم السـامع أن المتحدث يتحدث عـن «قطة» و «حقيبة» وحرف الجر «في» ؛ لكن السؤال الفلسفي أو التقني قد ينسب إلى هذه اللغـة العاديـة بعض الهواء من التعقيد بسـؤال مـاذا تقصـد بالقط؟ هـل هذا في حقيبتـه حقيبة أو حقيبة مماثلة؟ هذا يذكرنا بواحدة من تقسـيم الشـعر بين المثالية والمادية. يقـول المثالي أن الطاولة التي أراها ليست سوى فكرة في العقل، بينمـا يقول المـادي إن الطاولة شـيء ملموس وجسدي. نرى مثل هذه الخلافات حول الأسماء والمفاهيـم والكلمات والجمل وما من المفترض أن تعنيه. وغالباً ما يحدث هذا بسبب الانحراف عن القبول العـادي والواضح للكلمات والجمل والأسـماء. هناك مفاهيم خاطئة مماثلة وسـوء اسـتعمال الكلمـات التـي تؤدي إلـى مجموعة كبيرة من الألغاز اللغوية والمفاهيمية والارتباك تنشـأ حول أفكارنا حول «العقل والجسـد»[٨].

وطالمـا يؤكـد بيركلـي على الإحسـاس وهذه عادته وعـادة الفلاسـفة التجريبيين السـابقيين عليه، نجده فـي محاوراته قد اسـتعمال أنواعاً شـتى مـن الأسـاليب البلاغيـة، وقد اسـتعمل صـورة المحاورة لمخاطبة جمهور أوسـع مما يتـاح له في أية كتابات أخرى، والهدف من هذا الترويج لمبادئه الفلسـفية. ففي أحدى محاورات بيركلي يوجه على لسـان هيـلاس وهو يحاور فيلونوس بشـأن المعاني الفلسفية، إلى القول: « حقاً إننـي أعترف بغرابة بعض الاسـتنتاجات التي تقودنـي إليها، ولكنك تعلم أن اللغة العادية قد شكلت تعبيراتها على قدر فهم الرجل العادي. ولذلـك فيجـب أن لا ندهـش إذا رأينا أن بعض التعبيرات الفلسـفية الخاصـة تبدو لنا غريبة أو بعيدة عـن القصد»[٩]. فكان هـذا النقاش يدور حول الآراء والاستعمال العادي للكلمات، وهو الغاية الاساسـية التي سـعى بيركلـي لتوضيح المراد من اللغة العادية.

ثانياً- طرح الرؤى اللغوية البيركلية بشأن العلاقة بين الأفكار واللغة:

١-١: مناقشة بيركلي للكلمات والأفكار

على الرغم من تأكيد لوك على الترابط بين الكلمات والأفكار. في المقابل هناك أصرار من قبل بيركلي على التفرقة بين الأفكار والكلمات. فبالاستطاعة اسـتعمال الكلمات دون وجود أية أفكار محـددة متداعية معها. وتعتبر هذه الحالة مصـدر قدر كبير من لغو الـكلام. فعندما تذكر أن هنـاك كلمات معينة متوافـرة في عقلك فإن هـذا لا يعنـي بالضـرورة أن تتوافـر لـك أية أفكار حقة. ومثلمـا تناظر كلماتنا أفكاراً محددة بالمعنـى الذي يقصد للكلمة تكون كلماتنا مفعمة بالمعنـى ولهـا مغـزى وفحوى. ولهذا السـبب يرتـاب بيركلي في الكلمـات، ومن ثم يقول: « إذ حرصـت على حصر تفكيـري على ما لدي مـن أفكار بعد تجريدها مـن الكلمات، فإنني لا أدري من أين يسـهل وقوعي فـي الخطأ»[١٠]، ولكنه يعتقد أنه بمجرد سماحنا لانتباهنا بالشطط عن التجربة المباشـرة، ونزوعنا إلى استعمال الكلمـات مسـتقلة عـن الأفـكار التـي نجربها تجربـة مباشـرة(مثلما حدث في حالـة لايبنتز واسـبينوزا اللذين اتهمهما بالأقـدام على ذلك) فـإن تأملاتنا تتوقف عـن الدلالة على أي معنى حقيقي، وتتحول إلى مجرد لغو، ومن هنا يذكر بيركلـي: « لمـا... كانـت الكلمـات تجنح إلى فرض نفسـها على الفهم، لـذا صممت على أن أقلل من اسـتعمالي لها بقدر اسـتطاعتي... وأياً كانـت الأفكار التـي أبحثها، فإني سـأحاول أن أنظر إليها في ذاتهـا بعد تجريدها من الارتباط بالكلمـات»[١١]. ويرفض بيركلـي أطروحة أن بعـض الكلمـات لها دلالـة ثانويـة دون العقل. الأشـياء بدون العقل يمكن أن تكـون إما مادية أو غيـر ماديـة، وينكر بيركلي وجود السـابق وتخيل الأخير. تشـير كلمات مثـل «حصان» أو «أبيـض» إلى فكرة بدون الإشـارة إلى أي شـيء يتجاوز الفكرة؛ كلمات مثل «الروح» أو «الـربَّ» تعني مادة بدون وسـاطة فكرة. اللغة هي شـبكة من العلاقـات المميزة بيـن الأفكار التـي تحصل في بعض العلاقات العرفية... فإن النظـام من الدلالات هي لغة اصطناعية[١٢]. إذا كانت الاتصالات ناتجـة عن فرض إلهي(على سـبيل المثال، العلاقة بين أفكار النار والدخان، أو بيـن الفكـرة البصرية لمربـع وفكرة اللمس لمربع)، فإن هذا النظام هو لغة طبيعية. بالنسبة لدراسة بيركلي، فإن دراسة الطبيعة هي دراسة قواعد اللغـة الإلهية الظواهـر الطبيعية - التي

هـي، بالطبع، مجـرد مجموعات مـن الأفكار التـي يمكن أن تتخيـل بعضها البعـض، لكنها لا يمكـن أن تقف في علاقات سـببية حقيقية مع بعضها البعـض: هو خلق الربَّ واسـتمرارية الفعل التي تسـبب كل شيء في الوجود وتكون الطريقة التي تكـون بها[١٣]. في هاتين الفقرتين المشـار إليهمـا دلالـة علـى تشـخيص الفرق الدقيق بيـن اللغتين(الاصطناعيـة والطبيعية)، ومن هنا جاءت مناقشـة بيركلي النقدية للأفكار التـي طرحها لوك بغية معرفـة الغاية من اللغة وفهم المصطلحات العامـة ودلالاتها. لذا، فإن بيركلـي انطلاقـاً مـن مذهب اسـمي تصوري رفـض المفهـوم الفلسـفي للمـادة: إذ اعتبرت المادة تصوراً كلياً، ولكننا عاجزون عن تشكيل تمثيلات للتصورات الكلية. وبما أنه لا وجود إلا لما نستطيع أن نتخيله، فإن المادة غير موجودة. نحن نسـتعمل كلمات من قبيل حصان وإنسـان كأشكال مختصرة بغية جعل الكلام أكثر سهولة. غير أن استعمال اللغة بتلك الطريقة يجب أن لا يخدعنا فنعتقد أن التصورات الكلية مثل تصور الحصـان والبيت موجـودة، إذ إن الكلمات في نظريـة اللغة عند بيركلي تـدل على انطباعات حسـية[١٤]، والانطباع الحسّي هو معنى الكلمة، فكلمـة تفـاح تـدل علـى الانطباعات الحسّـية التـي تعني التفاح، أي إن معنـى كلمة تفاح هو مجموعة الانطباعات الحسّـية التي نملكها عن الشـيء، فكلمة مـادة لا معنى لهـا لأنها لا تدل على مثل تلك الانطباعات الحسية[١٥].

١-٢: تصورات المفاهيم البيركلية بشـأن الأفكار التجريدية -اللغوية

عمـل بيركلي فـي كتابه(مبـادئ المعرفة الإنسانية) على أجراء فحص شامل ودقيق فيما يتعلق بالمعرفة البشـرية ومبادئها الاساسية في محاولـة منه لدحض حجج الفلاسـفة السـابقين عليـه سـواء مـن مدرسـته التجريبيـة أو من طوائف فلسـفية متعـددة، الهـدف تعليل وجهة نظـر القائلين بوجود أفـكار مجردة، ولهذا جاء رفضه ومناقشـته لكتابات ونزاعات الفلاسـفة بشـأن هذه الأفـكار، بغيـة عدم احـراج العقل وهـو في بحثه عن الحقيقـة. فلقد طرح بيركلي في مبادئه مناقشـة العلاقة القائمـة بين الأفكار واللغة والأسماء واستعمال المصطلحات العامة ودلالاتها، من حيث أن هذه الموضوعات أثريت حولها الكثير من التأويلات والجدل الحاد داخل البيت الفلسـفي في تلك الحقبـة الزمنية، ولعلنا نحصرها بالفترة العصر الحديث خلال القرنيين السـابع عشر والثامن عشـر، وهذا المسار هو مدار دراستنا هذه. وبحسب وجهة نظره يرفض بيركلـي وجـود أفـكار مجردة، وفـي تصوره بأنهـا قضية يشـوبها التعقيد وليس من السـهل حلهـا وقدم في مبادئه تشـخيصاً لهـذه الرؤية، ومعلقـاً علـى الفلاسـفة الذين اقـروا بوجودها قد وقعـوا في أخطاء جسـيمة تسـودها الظلام وعـدم اليقين بطرحهـم مبادئ زائفـة ولم تقدم أي منفعة للجنس البشـري. وعليه يقول بيركلي فـي مقدمة «مبادئه»: « أذهـب الآن للنظر في مصدر هذه الفكرة السـائدة، ويبدو لي هذا لغة. وبالتأكيـد لا يمكـن أن يكون أي شـيء أقل من العقل نفسـه مصدرا للرأي الـذي تلقاه الجميع. والحقيقة أن هذا يظهر من أسـباب أخرى كذلك من الاعتراف البسـيط لأصحاب أقدس الأفكار المجردة، الذين يعترفون بأنهم صُنعوا من أجل التسـمية؛ الذي هو نتيجة واضحـة أنه إذا كان هناك لم يكن هناك أشياء مثل الكلام أو علامات عالمية لم يكن هناك أي فكرة عن التجريد»[١٦].

إن مثـل هذا الأجراء يُعد تقصير في أسـتعمال الكلمـات أو الإيحـاءات اللغويـة، والـذي هو مصدر إرباك وخطأ. وبشيء أكثر دقة للتعبير، إن في أعمال الفلاسـفة يلتجأون إلى اسـتعمال أسـماء أو مصطلحـات ليـس لها أفتـراض أو وجود، يقعـون في مصيدة «إسـاءة اللغة» من أجـل توضيح أفكارهم. وهـذا عيب حاصل في منظومتهم الفلسـفية لأن اللغـة مربكة، فينبغي الحـذر والتعامل معها بصـورة جيدة بعيداً عن الغمـوض والأفتراضات الاعتباطية. وعلى أية حال، حتى لا نبخس جهودهم في هذا المضمار، فالأفكار التـي وضعوها في توضيـح «اللغة» كان لهـا أثـر بارز في رسـم معالـم وخارطة الطريق اللغوي في الفترة المعاصرة.

وهكـذا، عـن طريـق الاثبـات والتحليـل التجريبـي حول اسـتعمال الأسـماء عن الخطأ الأساسـي وراء هـذه النظرة الخاطئـة للأفكار المجردة - أي الاثبات الذي ينتظر الإسـهامات البناءة منسـبه لفيلسـوف مثابـر. يرى بيركلي نفسـه كأحد هؤلاء المسـاهمين في ما يمكن أن نسميه علم الأسـماء: " دعونا نفحص الطريقة التي ساهمت فيها الكلمات في أصل هذا الخطأ. - أولاً، يُعتقـد أن لـكل اسـم، أو يجب أن يكون لـه، دلالة واحدة دقيقة ومسـطرة فقـط، والتي تحـث البشـر على الاعتقـاد بأن هنـاك بعض التجريـد، تحديـد الأفـكار التي تشـكل الدلالة الحقيقيـة والفوريـة لـكل اسـم عـام؛ وأنه من خلال وسـاطة هذه الأفكار المجردة، يأتي اسـم عـام للدلالـة على أي شـيء معيـن "[١٧]. من المفترض، أن لكل أسم له تعريفاً خاصاً به، وأن الأسـماء بالضـرورة الدائمة ترتبـط بالأفكار، فمن الجائز وجود العديد من الأسـماء «فارغة أو جوفـاء»، بمعنى ليس لهـا دلالة معينة وإنما هي فقط مسـميات. وعن ذلك، يعبر بيركلي، ما معنـاه « إذا لـم أكن مخطئًا، فسـيجد أنه عندما تكتسب اللغة شـيئاً مألوفاً، فإن جلسة الاستماع للأصوات أو رؤية الشـخصيات ستحضر على الفور مع تلك المشـاعر التي كانـت في البداية سـتنتج عن طريق تدخل الأفكار التي تم حذفها الآن»[١٨]. مـن هـذا المفتـرض، نتصور بعدم وجود علاقة مقيدة بين الأسماء وأفكارهم، حتى إن التجربة البسيطة ستوضح لأي فيلسوف يهتم بالبحث. ويترتب على ذلك أن الافتراض القائل بأن الاسم يجب أن يرتبط بفكرة، ناهيك عن أن يرتبـط بفكرة واحدة فقط، هـو افتراض باطل. وعلـى أية حال، فـي المنظومة المفترضة التي يطلق عليها «الأسماء» وفي ضوء الاستعمال، يتضـح أنه ليس من السـهل دائمـاً تحديد ما إذا كان اسم معين له فكرة مقترنة أم لا، ناهيك عن تحديد الفكـرة - إن وجدت - التي ينبغي ربطها بهذا الاسم: « في حين أنه، في الحقيقة، لا يوجد شيء اسـمه دلالة واحدة محددة وملحقة محددة بأي اسـم عام، كل ذلك يدل بشـكل لا لبس فيه على عدد كبير من الأفـكار الخاصة»[١٩]، وما نفهمه هنا، بحسـب النـص «البيركلي» بوجود محاولات تسعى إلى ربط أسم بفكرة واحدة إلى إهمال الآخرين، فهذه جهـود مصطنعة وبعيدة عن المسار اللغوي.

ولتوضيح أفكاره حول نظرية «الأسـماء» يرى بيركلي أن مبدأ التجريد من المبادئ الزائفة بل إنه يقودنا إلى الشـك والإلحاد.. وهكذا يجعل من قدرة العقل الإنسـاني علـى التجريد مجردة قـدرة علـى التخيـل، أي تخيـل المحسوسـات التـي هي قائمة في العقـل، فينكر بذلك المعاني المجـردة الكلية، ويسـلم بالمعانـي الكلية فقط، فمثـلاً فكرة المثلث قائـم الزاوية تمثل نوعاً من

المثلثـات ولكنها تختلف عـن غيرها من أنواع المثلثات الأخرى... وهكذا يسلم بيركلي بالنوع ولا يعني هذا أنه يسـلم بتصور أو معنى نتعقله ويطابق النوع بل هو مجرد إحسـاس بالتشـابه بيـن الجزئيات[٢٠]، واسـتناداً إلى هذا التشـابه تأتي أسماء أو رموز اللغة لتمثل هذه الجزئيات المتشـابهة وبهذا يصبح الاسـم عاماً أو الفكرة الجزئية عامة من حيث إنها تمثل سـائر الأفكار الجزئية المتشـابهة... لذلك فإن الأسماء العامة عند بيركلي ليست رموزاً للأفكار المجردة كما يـرى لوك بل إن الكلمة أو الاسـم تصبح عامة «لأنها رمز أو اسـم لأفكار متعددة جزئية»[٢١]. فيما يتعلق ببيركلي، أنه « لا توجد فكرة واحدة تسـويتها تحد مـن دلالة كلمة مثلـث»[٢٢]. هذه الرؤى التصورية من بيركلي، سيكون لها تأثير في المجتمع الفلسـفي، وبالتحديد عند المتتبعين والسـائرين في مسـار المنهج التجريبي، وأحد هـؤلاء المهتميـن بهـذا الشـأن هو الفيلسـوف «ديفيد هيوم».

نتيجةً لتمسك بيركلي تمسكاً شديداً بالمذهب التجريبي القائل بأن كل المعرفة تأتي من أفكار بسـيطة عن إحسـاس وتفكيـر، فقـد اعتقد أنه مـن المسـتحيل الوصول إلـى أي فكرة مجردة تظهر فـي أي منهما، وأن أي كلمة نسـتخدمها لتدل علـى خصائـص مشـتركة لموضوعات معينـة من موضوعـات تجربتنـا، لا يمكن أن تكون سـوى اسـم، وأنها لا يمكن أن تصف أي حقيقة واقعية[٢٣]. وخلاف ذلك بالنسبة لبيركلي مرجعـه التصورات الخاطئة عـن طبيعة اللغة حيـث يعتبر الفلاسـفة الأسـماء الكليـة رموزاً للأفكار المجردة... لهذا تنتفي ضرورة الأفكار المجردة فلا الأسـماء رموز لها ولا هي محددة لمعاني الأسـماء، وبذلك يكـون بيركلي نقيضاً للـوك عندمـا يرفض « وسـيطة الأفـكار بين الألفاظ والعالم الـذي نتكلم عنه، ذلك وأن اللغة تشـير مباشرة إلى ما نشعر به ونتذوقه ونسمعه ونشـمه»[٢٤]، لذلـك فالكلمـات ليسـت رموزاً للأفـكار المجردة بـل رموز للأفـكار الجزئية وبهذا تنتفي وسـاطة الأفكار المجردة بل ينتفي ذلـك التصـور الخاطئ الـذي يجعل الأسـماء الكليـة رمـوزاً للأفـكار المجردة والـذي يجد تعليله في الرأي السـائد عن طبيعة اللغة والذي يعتبر وظيفتها هي فقط اتصال وتبادل أفكارنا، فأصبح كل اسـم يمثل فكرة مجردة[٢٥]. ولكن يرى بيركلي أن الأسـماء هي رمـوز وظيفتها علـى نحويـن: الأول، أنها تمثل أفـكاراً جزئية متعـددة، والثانـي، أسـماء تؤثر علـى الإرادة والعقـل والعاطفة ولكنها لا تشـير إلى أية فكرة جزئيـة لذلـك نجد « انفعـالات الحب والخوف والكراهية والإعجاب والازدراء... تنشأ مباشرة في العقـل بمقتضى إدراك كلمات معينة وبدون أن تأتي أفـكار بين هذه الانفعالات والرموز أو الأسـماء»[٢٦]. وعليه فإن اللغـة، بالاختصار، أصل الاعتقاد بالأفكار المجردة، وهذا الاعتقاد أصل الغلط الفلسـفي الأساسي، ألا هو الاعتقاد بوجود مسـتقل عـن الذهـن، وهـذا الغلط هو مصـدر جميـع الجهـالات العلميـة والخلقية، والغايـة مـن كتـاب بيركلي «مبـادئ المعرفة الإنسـانية» هي بيان هذه العلاقة المتسلسلة[٢٧]. وبيركلـي لا يكتفي بإنـكار الأفـكار المجردة، بل يرفـض أيضاً كل تمييز بيـن الموضوعات والأفكار. وهذا هو لـب مثالية بيركلي، فكل ما يمكننا أن نعرفه ونتحدث عنه حقاً هو مضامين ذهنيـة. ولا يجد بيركلي صعوبـة في تفنيد هذه النظـرة إلـى اللغة. ذلـك لأن ما نفهمـه عندما نسـتمع إلى شـخص ما، هو المعنـى الاجمالي

لكلامه، لا سلسلة من المعاني اللفظية المنفصل بعضها عن بعض، والتي تنظم بعد ذلك كحبات العقد[٢٨]. وأخيراً، وبحسب ما اعتقده بيركلي، أنه أظهر أن كل من اللغة البشرية والمعرفة البشرية، وهي الأشياء التي غالباً ما يتم احتواؤها لأفكار مجردة لإمكانيتها، يمكن تفسيرها دون اللجوء إلى أي نوع من الفكرة المجردة... إن رفض بيركلي للأفكار المجردة يلعب دوراً في بعض حججه ضد وجود مادة في كتابيه «المبادئ» و «المحاورات الثلاثة». في هذه الأعمال، يدافع بيركلي عن الأطروحات المركزية للميتافيزيقيا: النظرية السلبية التي لا توجد حولها المادة، والأطروحة الإيجابية التي تعتبر الأرواح والأفكار هي الأشياء الوحيدة الموجودة. سننظر أولاً في الأطروحة السلبية، ثم النظرية الإيجابية[٢٩].

ثالثاً- مناقشة لآراء بيركلي السلبية والإيجابية في حججه على الأفكار الفلسفية:

جاءت مناقشات بيركلي الرافضة بوجود أفكار مجردة من جهة، وانتقاداته لطبيعة المعاني من خلال مناقشته آراء الفلسفة اليونانية المتمثلة(بالأفلاطونية والأرسطية) والمدرستين العقلية والتجريبية الحديثتين من جهة أخرى. ومن خلال تتبعنا لمسار اللغة بالعصر الحديث خلال الحقبة الزمنية(السابع عشر والثامن عشر) وجدنا الكثير من الآراء التي تدلا بدلوها أن الهدف الأساسي لبيركلي هو انتقاد لوك، من الممكن أن يكون هذا الرأي به نسبة صحيحة نوعاً ما.

وقبل الدخول في بيان آراء بيركلي تجاه الأفكار المجردة، نستعرض جانباً من آراء جون لوك وفق ما جاء في كتابه(مقال في الفهم البشري) فقد إشار بوجود علاقة وثيقة بين الأفكار والكلمات. وأفكارنا المجردة، والكلمات العامة، لها علاقة ثابتة مع بعضها ببعض، حيث إنه من المستحيل التحدث بوضوح ومعرفة واضحة لمعرفتنا، والتي تتكون جميعاً في المقترحات، من دون اعتبار، لما يأتي: أولاً، طبيعة الاستخدام، والدلالة على لغة»[٣٠]. والكتاب الثالث بعنوان(الكلمات) يُعدُّ واحداً من الإنجازات العظيمة «لمقال» لوك، وكان من أوائل الفلاسفة في العصر الحديث الذين حاولوا تقديم منهجية حساب وظيفة اللغة في البحث الفلسفي والعلمي. في حين حدد فلاسفة آخرون بالتأكيد إساءة استعمال اللغة، وأخذ كلمات عن الأشياء، كما الجناة في إدامة الكلمات الصعبة والمفاهيم المظلمة لأرسطو، لم يكن أي من هذه التهم تستند إلى حساب منهجي لدلالات أنواع الأسماء. ويرى لوك أن أفكارنا عن(أنواع) المواد هي أفكار معقدة تتكون من مجموعة من القوى والصفات التي يمكن ملاحظتها، والأفكار التي تكون أفكاراً بسيطة مستمدة تُعطى في الإحساس والتأمل، وتكون جنباً إلى جنب مع فكرة المادة بشكل عام، أو الطبقة التحتية[٣١]. وعلى سبيل المثال، فإن فكرة الذهب كمعدن أصفر، لين، قابل للانصهار، فمن هذه العلاقة التعريفية، تنطبق كلمة «ذهب» على كل طرود المادة من التي لها هذه الصفات... والسؤال الحاسم هنا الآن هو، ما الذي يحدد محتوى فكرة عامة من نوع ما، حيث إن الجوهر الاسمي بمثابة التعريف لهذا النوع؟ إن إجابة لوك واضحة: ما هي الصفات والقوى التي يتم تضمينها في الخصائص المميزة لنوع ما، هي وظيفة اتفاقية واتفاقية إنسانية، أو كما يقول، الجواهر الاسمية هي «صنعة التفاهم»[٣٢]. وليس هناك شك في أن تأشير لوك للعلاقة بين الكلمات والأفكار هي بمثابة قطعة أثرية بشرية ومنتج نشاط تطوعي، ويجادل لوك كلمات، أصبحت مستعملة عند البشر، كما هي علامات

أفكارهم[٣٣]، وعندما يدعي لوك أن الكلمات هي علامات معقولة، ضرورية للتواصل مع الأفكار، فهو يتخذ جانباً عملياً جداً، وقد يقول البعض ما بعد الحداثة بشكل مفاجئ عن تطور اللغة. من أجل اللغة، وضعت اللغة فقط لتكون وسيلة لتسهيل تنمية المجتمع بحيث يمكن للمرء أن ينقل الأفكار التي قد تبقى مخفية داخل صدره إذا جاز التعبير[٣٤].

وعلى أية حال، فمن الجائز انتقاد بيركلي للوك يخلق فضاءاً أوسع بكثير ويكون لفلسفته وآرائه النقدية مقبولية لدى المتابعين والمهتمين بالشأن اللغوي والفلسفي. لذا سنبين أطروحته التحليلية- النقدية بشقيها السلبية والإيجابية. وكما مبين إدناه:

أولاً- التشخيص السلبي:- ففي مقدمة كتابه(مبادئ المعرفة الإنسانية) عمل بيركلي على توضيح الحجج السابقة للفلاسفة القائلين بنظرية المعاني والصلة بين الكلمات والأفكار والتي أدت بدورها في خلق عقيدة خاصة بالأفكار المجردة، من خلال الفحص السليم للأفكار، وهذا ما عبر عنه، حيث يكتب « من أجل إعطاء فكرة أبعد عن الكيفية التي أتت بها الكلمات لإنتاج عقيدة الأفكار المجردة»[٣٥]. وهذا السلب، يقر بوجود أخطاء ناجمة في كتابات ونقاشات الفلاسفة الدائرة حول النظرية التجريدية المتعلقة بسوء استخدام اللغة، فقد طرح بيركلي فكرة «إعداد عقل» لفهم مجريات الأمور، « فمن المناسب تقديم بعض الشيء، عن طريق مقدمة، فيما يتعلق بطبيعة وإساءة استعمال اللغة. لكن تفكيك هذه المسألة يقودني إلى حد ما إلى توقع تصميمي، من خلال ملاحظة ما يبدو أنه كان له دور رئيسي في جعل التكهنات معقدة ومثيرة للقلق، وتسبب في أخطاء وصعوبات لا حصر لها في جميع أجزاء المعرفة تقريبًا. وهذا هو رأي أن العقل يمتلك قوة في تأطير الأفكار المجردة أو مفاهيم الأشياء"[٣٦].

وعلى الرغم مما قلناه في السابق، ونؤكد عليه في الحال وجهة نظر بيركلي القائلة بعدم الترابط بين الكلمات والأفكار، ولأنه « طالما ظن الناس أن الأفكار المجردة مرفقة بكلماتهم، فلا يبدو غريباً أن يستعملوا الكلمات للأفكار، وأن يجدوا شيئًا غير عملي للتخلص من الكلمة، والاحتفاظ بالفكرة المجردة في العقل، في حد ذاته كان لا يمكن تصوره تماما»[٣٧]. وبالإمكان معرفة حجج بيركلي الجدلية في كتابه « ألسيفرون أو الفيلسوف الصغير» وبالتحديد في الحوار السابع من حيث أن أطروحاته كانت موجه بالضد من آراء كل من لوك أو بور رويال[*]. حيث يوضح بيركلي ما قاله خصمه الفلسفي، بالقول: « الكلمات هي علامات: يفعلون أو يقفون للأفكار. التي تشير إلى أنها مؤشرات(مهمة). لكن الكلمات التي توحي بأية أفكار غير مهمة. هو الذي يضيف فكرة واضحة لكل كلمة يستفاد منها، ويتحدث بعمق: ولكن عندما تكون مثل هذه الأفكار راغبة، يعبّر المتكلم عن هراء. من أجل معرفة ما إذا كان خطاب أي شخص لا معنى له ولا معنى له، ليس لدينا أي شيء نفعله إلا أن نضع الكلمات وننظر في الأفكار التي اقترحها. يجب على الناس، فوراً الذين لا يستطيعون توصيل أفكارهم إلى بعضهم البعض، استعمال علامات أو كلمات معقولة؛ استعمال هذا هو لرفع تلك الأفكار في السامع، والتي هي في ذهن المتحدث: وإذا فشلوا من هذه الغاية، فإنها لا تخدم أي غرض»[٣٨]، وهو، الذي يعتقد حقًا أن هناك مجموعة من الأفكار تنجح وتتواصل فيما بينها: وعندما يعبر عن نفسه من خلال الخطاب، تقترح كل كلمة فكرة مميزة

على المستمع أو القارئ. من هذا يعني أن له الشهرة من الأفكار في بلده، والتي كانت في ذهن المتحدث أو الكاتب. بقدر ما يتم إنتاج هذا التأثير، حتى الآن الخطاب هو واضح، له معنى ومعنى. ومن ثم، فإن كل من يفترض أن يفهم ما يقرأه أو يسمعه، يجب أن يكون لديه مجموعة من الأفكار التي تثار في ذهنه، أي المراسل إلى مجموعة الكلمات الذي يقرأ أو يسمع. هذه الحقائق الواضحة، التي يوافق عليها الناس نظرياً من الناحية النظرية، لا تحظى إلا بقدر ضئيل من الممارسة، وبالتالي فهي تستحق أن يتم توسيعها وتغريسها مهما كانت واضحة ولا يمكن إنكارها[٣٩]. وما تجدر الإشارة إليه، وفقاً للسجالات المطروحة والانتقادات الجدلية حول اعتراضات بيركلي لوجهات النظر الفلسفية الخاصة بالأفكار المجردة التي كانت تمثل محطات جدال ونقاش لا نهاية لها. فجاءت منهجيته وأهدافه وملاحظاته في «مبادئه» لإظهار حجج الفلاسفة وتناقضاتهم ورفضه لما يعتقدون به من وجود أفكاراً مجردة. ويرى أن « هناك أسباب للاعتقاد بأن معظم الناس سيقرون بأنهم في حالتي. على إن عمومية الناس البسطاء والأميين لا تتظاهر أبداً بأفكار مجردة»[٤٠]. وفي مقطع أخر يشير بيركلي: « يقال أنها صعبة ولا يمكن تحقيقها دون آلام ودراسة ؛ ومن ثم قد نستنتج بشكل معقول أنه إذا كان هذا موجوداً، فإنها تقتصر على المتعلمين فقط»[٤١]. ومن خلال ذلك تتبين الغاية التي سعى بيركلي لتوضيحها وتبريرها عن كيفية الاعتقاد بهذه الأفكار من قبل أسلافه. يذهب بيركلي لتعليل وجهة نظره، بالقول: « أتابع النظر في ما يمكن أن يدّعي أنه دفاع عن عقيدة التجريد، وأحاول أن أتمكن من اكتشاف ما هو الأمر الذي يحث بشر المضاربة على تبني رأي بعيد جداً عن المنطق كما يبدو ذلك»[٤٢]. وعليه فلقد قدم بيركلي اعتراضاته وحججه الرافضة للادعاء بوجود أفكار مجردة، وعمل على التصحيح الناجم لهذا التصور بحسب تعبيره. والنقطة المحورية الأهم التي تجري حولها السجالات والنقاشات الفلسفية قائمة على استعمال اللغة وإساءة استعمالها.

ومن باب المقارنة بين لوك و بيركلي، فما أريد قوله هنا، له علاقة بما قيل سابقاً، وتُظهر الآراء التي ذكرتها بوجود صراع خفي في طيات فكر بيركلي تجاه الأفكار المجردة التي أيدها لوك في طرح رؤيته، وبالرغم من أسبقية لوك عن بيركلي بالفترة الزمنية بالظهور وطرح آرائه الفلسفية، إلا أنني أشير أنه بالرغم من التنافسية موجودة في الطبيعة البشرية وهذه غريزة طبيعية لا بأس بها، إلا أنها لا تستوجب ولا من غير الجائز الوصول لحالة التطرف في رفض عقيدة الأفكار التجريدية كما وصل إليها بيركلي. وعلى أية حال، يذكر لوك على أنه « لم يتم الحصول على الاستخدام المفيد للأصوات إلا من خلال اختلاف الأفكار التي ظهرت عليها علامات: تلك الاختلافات في الأفكار التي ظهرت بها علامات على أن تصبح الأسماء عامة، والتي يتم ترشيحها للأفكار العامة؛ وتلك التي تبقى خاصة، حيث الأفكار التي يتم استعمالهاهي خاصة»[٤٣]. ويبدو لنا من خلال النص التي أشار إليه «للوك» هنا وفي السابق، بأنه يدعو أن تكون هناك أفكار عامة أي لا توجد بها خصوصية، وهذا الرأي الذي عبر من خلاله بالقول بوجود أفكار مجردة. فكان الجدال الدائر في مناقشة بيركلي للوك، هي اعتقاد هذا الأخير بظاهرة أن الأفكار العامة المجردة هي التي تضع الفرق الأوسع في فهم الإنسان والحيوان. وفي ضوء ذلك يعلق بيركلي، قائلاً: « أنا أتفق بسهولة مع هذا الكاتب المستفاد، أن كليات المتوحشين لا يمكن

بأي حال مـن الأحوال أن تصل إلـى التجريد. ولكـن إذا كان هـذا هو الخاصيـة المميزة لهذا النوع من الحيوانات، فأنا أخشـى أن يكون عدد كبيـر من أولئـك الذين يمرون من أجل البشـر في حسـابهم»[٤٤]. إن السـبب هنا كما يتصوره بيركلي هو سـبب عدم وجود أسـباب للاعتقاد بـأن الأفـكار المتعجبة لها أفـكار عامة مجردة هـي أننا نلاحـظ فيها عـدم اسـتعمال الكلمات أو أي علامـات عامة أخـرى؛ التي بنيت على هذا الافتراض - أن اسـتعمال الكلمات يسـتلزم وجـود أفكار عامة. ويتبع ذلك أن البشـر الذين يسـتعملون اللغة قادرون علـى تجريد أفكارهم أو تعميمهـا. أن هـذا هو معنـى وحجة المؤلف أي إشـارة إلى «لوك» ستظهر أكثر من خلال إجابته على السؤال الذي طرحه في مكان آخر: « بمـا أن كل الأشـياء الموجـودة هي تفاصيل فقط، فكيف نحن بعبـارات عامة؟»[٤٥]. إجابته كما جاءت في مقال عن التفاهم البشـري، هي: " تصبح الكلمات عامة عن طريق جعل الأفكار العامة علامات"[٤٦].

ثانياً- التشخيص الإيجابي:

في هذه الفقرة، سنناقش ثلاثة محاور أساسية في فلسـفة اللغة البيركلية. أولهما المصطلحات العامة، تبـدأ حجة بيركلي بالقول أن « كلمة ما تصبـح عامة من خلال جعلها علامة، وليسـت فكرة عامة مجردة، بل لأفكار معينة متعددة، أي مقترحة منها بشكل لا لبس فيه على العقل»[٤٧]. على سـبيل المثال، عندما يقـال تغيير الحركة يتناسـب مع القوة المعجب بها، «أو تلك» مهما كان التمديد قابل للقسمة، هذه الافتراضات يجب أن تفهم بالحركة والامتداد بشكل عام؛ ومع ذلك فإنهـا لن تتبع أنها توحي لأفكاري فكرة الحركة بدون تحريك جسد، أو أي اتجاه محدد وسرعة، أو أننـي يجـب أن أتصور فكـرة عامة مجردة للتمديد، وهي ليست خطًا، أو سطحًا، أو صلبًا، لا كبيرًا أو صغيرًا، أسود، أبيض، أو أحمر، أو أي لون محدد آخر[٤٨].

والمحـور المهم في نظريـة بيركلي العامة يؤشـر إذا لـم يكن هناك أشـياء مثـل الكلام أو علامـات عالميـة لم يكـن هنـاك أي فكرة عن التجريـد. وهـذه دعـوة لفحص الطريقـة التي سـاهمت فيها الكلمات في أصل هذا الخطأ. كما يقول بيركلي « هناك شـيء واحد للحفاظ على اسـم دائم لنفس التعريف، وآخر لجعله يقف في كل مكان لنفس الفكرة: واحد ضروري، والآخر هو غير عديم الفائـدة وغير عملي»[٤٩]. وعليه يوفـر التعريف قاعـدة لتطبيق الكلمـة. وبناءاً عليه يذكر بيركلي « كل ذلك يدل بشكل لا لبس فيـه على عدد كبير من الأفـكار الخاصة»[٥٠]. وما يمكننـا قوله بوجود قاعـدة تعريفية تخص «الاسـم» لتوضيح الاسـتعمال المناسـب لهذا الاسـم وتعلمـه ضروريـة فـي الاسـتعمالات اللغويـة. لـذا إن قاعدة التي اسـتعمالها بيركلي هـي كلمة «المثلث»، التي سـبق أن اسـتعملها «لـوك»، فيقول بيركلي: «سـطح عادي تفهمه ثلاثة خطوط يمينية»[٥١]. ومعنى هذا الاستخدام المماثل للكلمة يدخل في خانة النقاشات الفلسفية للأفـكار العامـة والمصطلحـات لبيـان مـدى التطابق من عدمها بين الأفكار والكلمات.

ومـا يمكن قولـه، إن الأطروحـة البيركلية جاءت لتناقـش الكيفية التي مـن خلالها تتكون الأفكار العامـة، وكيفية الدلالـة عليها، وكيفية تكويـن الكلمات؟ فـكل هذا الطرح والتسـاؤل كان ضمن منظومته الفلسـفية التـي أثرتها في الخطـاب اللغـوي خـلال القرن الثامن عشـر الميـلادي. وحتـى يتسـنى لنا معرفـة الجواب المناسب لهذه التساؤلات، نذهب إلى ما شخصه بيركلي في كتابـه «المبادئ»، حيث قال:« من

خـلال ملاحظـة كيف تصبـح الأفـكار عامة، يمكننا الحكم على كيفية صياغة الكلمات بشـكل أفضـل. وهنا تجدر الإشـارة إلـى أنني لا أنكر مطلقاً وجود أفكار عامة، ولكن فقط توجد أفكار عامـة مجردة»[٥٢]. وأخيراً، كان وصفه للكيفية التي بموجبها تشـكلت الأفكار العامة، كما يبدو من خـلال الصيغـة التاليـة: «الآن، إذا أضفنا معنـى لكلماتنـا، ولا أتحدث إلا عمـا يمكن أن نتصور، وأعتقد أننا سنقر بأن الفكرة التي تعتبر فـي حد ذاتهـا خاصة، تصبح عامـة من خلال جعلها تمثل أو تقف لجميع الأفكار الأخرى من نفس النوع. لجعـل هذا واضحاً بمثال، افترض أن هندسـياً يوضح طريقة قطع خط في جزئين متسـاويين. فهو يرسم، على سبيل المثال، خطاً أسـود طوله بوصـة واحدة: هـذا، وهو في حد ذاتـه خط معين، مـع ذلك، فيما يتعلـق بمدونه العام، لأنـه، كما هو موجود، انهـا تمثل جميع الخطـوط الخاصة علـى الإطـلاق؛ بحيث يتم إثبات مـا يظهر من كل الخطـوط»[٥٣]. وعليه فإن الرؤية المشخصة وفقاً للغة البيركلية كانت المغـزى منها التسـاوي ما بين الأفـكار العامة والمصطلحات العامة، وعن ذلك، يعلل قوله: « وبما أن الأول يدين بعمومته ليس لكونه علامة على خط مجرّد أو عام، بل على جميع الخطوط الصحيحـة المعينة التي قد تكـون موجودة، لذا يجب التفكير في أن الأخيرة تستمد طابعها العام مـن نفس القضيـة، أي خطوط معينـة مما يدل على ذلك بشكل غير مبال»[٥٤].

ثانيهما، بعـد ما قيل حول مناقشـة الأفكار والمعانـي، ذهـب بيركلـي إلى حد القـول، ما مفـاده بأن « اللغة ليـس لها نهاية أخرى، ولكن تواصل أفكارنا، وأن كل اسـم هـام يقف وراء فكـرة»[٥٥]. وهذا التشـخيص الإيجابي يسـمى باللغة المنطوقة.

وفقاً لتجارب الحيـاة العملية وأمثلتها، فمن الممكن يتم استعمال اسم لا يمثل فكرة. غالباً ما تستعمل اللغة لأسـباب «عاطفية»، على سبيل المثال: إن توصيل الأفكار التي تميزها الكلمات ليس هو الهدف الرئيسي والنهائي للغة، كما هو مفترض عـادة. هناك غايات أخرى، مثل إثارة بعض الشـغف، أو الإثارة أو الردع من الفعل، أو وضع العقل في تصرف معين- والذي يكون الأول فـي كثير مـن الحالات بالـكاد خاضعاً، وأحيانـاً محـذوف تمامـاً، عندمـا يكـون ذلك الحصـول عليه دون ذلك، كمـا أعتقد لا يحدث بشـكل غيـر طبيعي فـي الاسـتخدام المألوف للغة[٥٦].

وهنـا نفهم من خـلال حديـث بيركلي بأنه اسـتعمل اللغـة مـن خـلال جانبهـا العاطفي، والسـؤال المطـروح والذي يتبـادر إلى ذهننا- هـل اللغة لهـا علاقة بالعواطف؟ سـأجيب عن هذا التساؤل بوضوح ورؤية وسأناقش بيركلي بشـأن تصوره هذا، أذهب إلـى القول بأن اللغة هي الوسـيلة للتواصل مع الجنس البشـري من خلال الكلمـات المنطوقة والأصوات، أي بأنها النبرة اللسـانية(أن صح التعبيـر)، فكيف يقول بيركلي بعلاقـة اللغة بالعاطفة، وإذا كان كلامه هـذا صحيح فإن عواطفنا هي التي تدفعنا لنطق المعنى المراد، أنا أتفق مع بيركلي بشطر واحد علـى هـذه الصيغة، علـى أن العاشـق المحب والشـاعر المبدع يسـتعمل العواطـف لاختيار مفرداتـه وتحريك أحاسيسـه، ولكـن أن تكون اللغة مرسـومة وفق العاطفة فهذا شيء لا يقبله العقل ولا المنطق، ولغة بيركلي هذه لغة عادية وهو رائدا فيهـا كما هو معروف، إلا أنها تفتقد إلـى القواعـد النحويـة فهنالك سـياقات متبعة باللغـة ومدى الترابط بالأفكار وإن كان بيركلي يرفض الترابط بيـن الكلمات والأفكار، وأختتم بالقـول بأن لدي فكرة ما في ذهني صقلها العقل

بصـورة مناسـبة وعن طريق ذلـك أعبر عنها باللغة المنطوقة.

وفـي نص يجـادل بيركلي علـى ضرورة الإحسـاس ومن دونـه لا يوجد شـيء حقيقي، وهذا يعرض تماماً كلامي السابق، حيث يكتب: « لكـن قوتـي الخرافيـة أو التخيليـة لا تتعدى إمكانيـة الوجـود الحقيقي أو الإدراك الحسـي. ومـن ثم، لأنه مـن المسـتحيل بالنسـبة لي أن أرى أو أشعر بأي شـيء بدون إحساس حقيقي بهذا الشـيء، كذلك يسـتحيل علـيّ أن أتصور فـي أفكاري أي شـيء معقول أو شـيء متميز عن الإحسـاس أو الإدراك لـه»[٥٧]. وهذا دليل يؤكده بيركلي من خـلال طرحه لنظريته(اللغة المنطوقـة) على عدم وجـود صلة بين الكلمات والأفكار، وبحسب تصوره بوجود قواعد لغوية مختلفة تماماً، لا تشير إلى هذه الصلة أعلاه.

ويخلـص حديثه عـن اللغـة المنطوقة كما طرحها بيركلي، جاء تأكيده على أن « الأسماء العامة غالباً ما تسـتعمل فـي ملائمة اللغة دون أن يقوم المتحدث بتصميمها لعلامات أفكار في بلـده، والتي قـد يثيرها في عقل السـامع. حتى الأسـماء السـليمة نفسـها لا تبدو دائمًا منطوقة بتفاصيـل لتصميم أفكار الأفـراد المفترض أن يتم تمييزهم بها»[٥٨]. على سـبيل المثال، عندما يخبرني أحد المدرسين أن «أرسطو قد قال ذلك، « كل ما أتصـوره هو أنه يتصرف لي أن أقبل رأيـه مع الاحترام و التقديم المخصص الذي تم إرفاقه بهذا الاسم. وغالبا ما يتم إنتاج هذا التأثير علـى الفور في عقول أولئك الذين اعتادوا على الاسـتقالة من حكمهم لسـلطة ذلك الفيلسـوف، حيث أنه من المستحيل على أي فكرة سواء من شخصه أو كتاباته أو سمعته يجب أن تذهب من قبل. يمكن إعطـاء أمثلة لا تعد ولا تحصى من هذا النوع، ولكن لماذا أصرّ على تلك الأشـياء التي ستشـهدها تجربة كل شخص، لا أشك في ذلك، أقترحه بكل وضوح؟[٥٩].

ومـن الجائـز مـا ذكرتـه مـن نصـوص لبيركلي كمـا وردت في كتابه «مبادئ المعرفة الإنسانية»، والحديث هنا عن «اللغة العاطفية» هي المطلب الرئيسـي لتداول مفـردات الكلام التي سـعى بيركلي لبيانها من خلال مناقشـاته المسـتفيضة في رفض العقيـدة التجريدية التي طالمـا يؤكد على عدم وجـود مثل هذه الأفكار. وإذا شـأن نبـدي وجهة نظـر أكثر عمقـاً لهذه الرؤيـة والتصـور الرافـض فإنهـا نابعة وفق عقيـدة دينيـة راسـخة لـدى بيركلـي لرفـض تطلعات الأفـكار التنويرية والمفكرين الأحرار الهادمة للديانة المسيحية بحسب تعبير بيركلي. والمحصلـة النهائية للجدل الدائـر بين بيركلي والفلاسفة السـابقين عليه حول نظرية المعاني والفهم الخاطئ لاسـتعمال اللغة، يمكننا إجمالها بما يلي:

أولاً- يـرى بيركلي من خـلال تحليل آراء الفلاسـفة بأنهـم وقوعـوا فـي أخطاء جسـيمة منشأها(التجريد).

ثانياً- في عرض نظريته «اللغة المنطوقة»، جاءت مهاجمة بيركلي لنظرية المعاني للفلاسفة برفـض أفكارهم المجردة والمادية ظناً منه بأن هـذه الأفكار تؤدي إلى التضليل والإلحاد وعدم جدواها في العقيدة المسيحية.

ثالثاً- بيركلي يعتبر قسـاً لاهوتيـاً، فكانت معظم أطروحاته وأفكاره ومناقشـاته مبنية وفقاً لرؤيـة دينيـة بحتـة، مما حذى بـه لرفض كل الأفكار التـي تخالفها عقيدتـه، مما أحدث نوع من سـوء الفهم لدى الكتّاب والقراء والفلاسـفة المهتميـن بالشـأن اللغوي. وهنا بحسـب رأي أجد حدوث شـق في طـرح الفكـر اللغوي في

تلـك الفتـرة الزمنيـة، بين صفيـن: صف من الفلاسـفة القائلين بالأفـكار المجردة من أمثال(ديـكارت، ومالبرانش، ولوك)، وصف بيركلي اللاهوتـي المحلـل الدقيق ورائد اللغـة العادية الرافضـة للعقيدة التجريديـة. وهنا يكون الحكم للقارئ وحده إدراك من الجهة الأكثر صحة من الأخـرى. ولكن أقـول بصراحة حتى لا نبخس حق أحـد من الفلاسـفة المذكوريـن أنفاً، نرى كلهم قدموا فكر فلسـفي كان له الأثر البارز في السـاحة الثقافية الأوروبية وان تباينت وجهات نظر مختلفة، إلا أن الاختلاف لا يفسـد في الود قضيـة. علـى الرغم من قناعتـي التامة أن هذا الاختـلاف مصدره صـراع أيديولوجي بحت، قبـل أن يكون أختلاف فلسـفي فكري. هذه هي المؤشرات القواعد اللغوية في سبيل بيان الكلام المنطوق وفق التعابير اللفظية.

والمحـور الأخير في التشـخيص الإيجابي سـيكون بالحديـث الرموز الرياضيـة والصيغ العلمية فكلاهما، يعتبران حلقة أساسية في فلسفة اللغة البيركلية. فأسـعى جاهـداً لبيان مراميهما في الصياغة اللغوية. من جانب اللغة الرياضية، تعتبـر الرياضيـات فـوق كل فـروع العلـوم الأخـرى التي بدت أقوى لدعم الإيمان بالأفكار المجردة، لأن الأشـياء التي تُقابل بالرياضيات لا تبدو ذات أهمية. لذلك، ليس من المسـتغرب، أن بيركلي يحول انتباهه إلى الأشياء الرياضية، ففي «مبادئه» قد تـم الافتراض أن الأرقام هي مثال رئيسـي للكيانات المجردة، والحساب علم يكتشف خصائص وعلاقات تلك الكيانات[٦٠]. إن موضوع علم الحساب هو العلامات أو الرموز أي الأعـداد، غيـر أن فكرة العدد ليسـت فكرة مجـردة، وذلك على الضد مما يعتقده الفلاسـفة حيـث يـرون أن موضوعـه الأفـكار المجردة للعدد[٦١]. ولكـن، « يتم تعريف الرقم مجموعة مـن الوحدات، يمكننا أن نسـتنتج أنه إذا لم يكن هناك شـيء مثل الوحدة في صورة مجردة، أي لا توجد أفكار مجردة يدل عليها بأسماء الأرقام والأعداد»[٦٢]. لذلك النظريات في الحساب، إذا تم اسـتخراجها من الأسـماء والأرقام، كما هو الحال من جميع الاسـتخدام والممارسة، وكذلك من الأشياء المحددة المرقمة، يمكن أن يفترض أن ليس لديها أي شيء موضوع على الإطلاق؛ وبالتالـي قد نرى كيف أن علـم الأرقام هو كلياً خاضعاً للممارسة[٦٣].

وكان بيركلـي واضحـاً تمامـاً فـي تحديد الأرقام بأسـمائها أو أرقامها، بحيث تم اكتشاف طـرق البحث، من الأرقام أو العلامات المحددة للأجزاء، ما هي الأشـكال وكيف تكون مناسبة للدلالـة على الـكل، أو العكـس بالعكس. وبعد العثـور على الأرقـام المطلوبة، نفـس القاعدة أو القيـاس الذي يتـم ملاحظته طـوال الوقت، من السـهل قراءة كلماتـه؛ ومن ثم يصبح الرقم معروفاً تماماً[٦٤]. فبعد الكلام عن اللغة الحسابية ومـا تضمنتها من الأرقام والرموز، جاء الدور للحديث عن اللغة الهندسـية من خلال الامتداد، والـذي يعتبر، نسـبي، هو موضوع الهندسـة. لذا إن موضوع علم الهندسـة ليـس هو المكان المطلـق ولا المكان المجرد أي الفكرة المجردة للمـكان، بـل إن موضوعه هو المـكان العيني «Concrete" للخبـرة، هـو الخـط المرئـي والملمـوس أو السـطح المرئـي والملمـوس. الثانـي: يلزم عـن الأمـر الأول بالضرورة أن مكانه لا يقبل القسـمة إلى مـا لا نهاية[٦٥]. ولقد شـهدنا بالفعـل أنه في «مبـادئ» بيركلي يقول إن البراهيـن الممنوحـة في الهندسـة لا تتعلق بالأرقام المجردة ولكنها تدور حول هذا الرقم أو ذاك الذي يُعد ممثلاً لجميع الشخصيات الأخرى المشـابهة لـه فـي السـياق المعنـي[٦٦]. لقد تم استبعاد الأفكار المستخلصة، لذلك لا يبقى سوى الاحتمالين الأخيرين. وعن هذا كتب يقول أنه«

إذا كان الشكل المرئي والامتداد غير متطابقين مع الرقم الملموس والامتداد، فإننا لا نستنتج، أن هناك شيئاً واحداً لديه نفس الامتدادات المختلفة. النتيجة الحقيقية هي أن كائنات البصر واللمس هما شيئان مميزان»[٦٧]، ربما، يتطلب بعض الفكر، عن حق في تصور هذا التمييز. ويبدو أن الأمر لا يتزايد قليلاً، لأن "مجموعة من الأفكار المرئية" لها نفس الاسم دائمًا، مثل مزيج الأفكار الملموسة التي ترتبط بها. الذي ينشأ بالضرورة عن الاستخدام ونهاية اللغة[٦٨]. ويشير بيركلي إلى إن «الحجم الملموس والمرئي» ينتمون إلى شيئين مختلفين: مع ذلك سأفعل(لا سيما وأن هذه الأشياء تسمى بنفس الاسم، وتلاحظ أن تتعايش)، وذلك " لتجنب الاضطهاد والوحدة في الكلام، وأحيانا تحدث عنهم، على أنهم ينتمون إلى نفس الشيء"[٦٩]. وعليه فإنه يبدو أن المخططات المرئية المألوفة التي ترسمها الاعتماد على الورق هي مجرد علامات لتلك الشخصيات الملموسة، وبالكثير من الكلمات هي علامات الأشياء، ومن الخطأ أن نخلط بين العلامة المرئية والجسم الملموس، بقدر ما هو الخلط بين الكلمة والشيء الذي تدل عليه. في وقت لاحق، في كتابه «المحلل» Analyst، كان بيركلي على استعداد لرؤية الرسوم البيانية المرئية كعلامات من جميع المعقول ومن المفترض أن يكون من بين تلك "الامتدادات التي يمكن تخيلها" الدوائر والميادين المثالية، والمجالات والمكعبات، من الهندسة الكلاسيكية[٧٠].

رابعاً- التحليل المستفيض بشأن اللغة البصرية عند بيركلي:

نحن أمام توضيح سيميائي للإحساسات البصرية التي تعتبر بحد ذاتها علامات دلالية بارزة على الأحاسيس الملموسة. وتظهر حقيقة هذا الشيء في كتابه « مقال نحو نظرية جديدة للرؤية». سعى بيركلي من خلال مناقشته التجربة البصرية إلى أحداث طفرة جديدة وتغير الخطوات في ضوء المناقشات الجارية بالعصر الحديث بدلاً من اللجوء إلى أساليب الإدراك ومنهجية علم النفس الإدراكي وغيرها من السياقات الحديثة المتبعة. ففي مطلع كتابه الأنف الذكر، كتب يقول إن « تصميمي هو توضيح الطريقة التي نتصور بها رؤية المسافة، الحجم، وحالة الأشياء. أيضاً للنظر هناك في الفرق بين أفكار البصر واللمس، وما إذا كان هناك أي فكرة مشتركة لكلا الحواس. في علاج يبدو لي أن كتّاب البصريات بدأوا على مبادئ خاطئة»[٧١]. وعلى ما يبدو من ظاهر الأمر يعلن أن نظريته الجديدة تهدف إلى شرح كيفية إدراكنا للمسافة والظواهر الأخرى بشكل مرئي «عن طريق البصر». وأن كانت هذه الادعاءات تبدو محيرة نوعا ما، إلا أنني لست بصدد الخوض في غمارها، بقدر ما يهمنا بيان اللغة من خلال الأحاسيس البصرية بحسب تعبير بيركلي.

ويذكر أن بيركلي يعامل الأشياء المادية على أنها قائمة مستقلة عن الإدراك، وقد أوضح ذلك في القسم ٤٤ من الجزء الأول من «المبادئ» بقوله أنه « أن أغراض الرؤية الصحيحة لا وجود لها بدون عقل، ولا هي صور الأشياء الخارجية، حتى في هذه الرسالة. على الرغم من أن العكس هو الصحيح في جميع الأحوال، إلا أنه من المفترض أن هذا الخطأ المبتكر كان ضروريًا لإثبات المفهوم الوارد فيه، ولكن لأنه كان إلى جانب هدفي لدحضه ودحضه في خطاب يتعلق بالرؤية»[٧٢]. سأحاول شرح نظرية بيركلي الأساسية للرؤية، كما قدمها؛ مع المحافظة على ترتيبها وأتساقها كما وردت في نصوصه، ثم سأعمل على تفكيك نصوصه

لأجل تحليلها للوصول إلى فلسفة اللغة «البصرية الطبيعية» البيركلية.

وإن هدفي في هذا المناقشة، هو توضيح الغاية من«اللغة الطبيعية» كما تتطرق إليها بيركلي، والجدير بالذكر أنه أشار في نظريته الجديدة للرؤيا حول كيفية معرفة اللغة البصرية من خلال الرؤية، وبدورنا نسميها «لغة العيون»، هذه الأخيرة نعرفها على سبيل المثال من خلال الحب والأعجاب بفتاة ما وتكون الإيحاءات والإشارات بالبصر حاضرة بينة عن طريق الشعور بالخجل واحمرار الوجه وما شابه ذلك، وهناك أمثلة عديدة عن لغة البصر، هذا توضيح مبسط من قبلنا، لغرض الفهم. وليست واردة في نصوصه، لذا سنبين تفاصيلها عند بيركلي تباعاً.

كان توجه بيركلي الهادف في تقديمه «لنظرية الرؤيا» إلى افتراض أن يميل الخطاب العام المشترك إلى التفكير، حيث أشار لأفكار جديدة محملة على الأحاسيس والمستخلصة من التجربة. في جميع أنحاء المقال، ذكر مصطلحات عديدة، كمثل(المسافة، والضوء، واللون، والسمع، والرؤية، واللمس، والحجم، والشكل، والتمديد، والحركة... الخ). ومع هذا، ومن المتفق عليه أن لهذه الأفكار حاسة من الحواس التي تدرك الأشياء، وبأنها مختلفة تمامًا ومتميزة عن بعضها البعض. وعلى أية حال، يقول بيركلي: « الأشياء التي توصل إليها البصر، كانت تبدو له(كما هو الحال في الحقيقة) ليست سوى مجموعة جديدة من الأفكار أو الأحاسيس، كل منها أقرب إليه، مثل تصورات الألم أو المتعة، أو الأكثر داخلية عواطف روحه»[٧٣]. وقد جادل عدد من الكتّاب السابقين في الرؤية، بطرح وجهات نظرهم القائلة بعدم رؤية مسافة الشيء مباشرة. وعن هذا يوضح بيركلي: « قام غاسندي وديكارت وهوبز وعدة أشخاص آخرين بتوظيف أفكارهم حول هذا الموضوع: ولكن من الملفت للنظر بأن جهودهم غير مثمرة وغير مرضية... حيث قد ترى العديد من آرائهم الموضحة والمحفوظة، ولكنها لا تخلو من بعض الأخطاء الفادحة، فقد تم إجبار البشر البارعين، من خلال السعي إلى التوفيق بين هذا المظهر وبين المبادئ العادية للبصريات»[٧٤]. ويشير بيركلي الى أنه عن طريق اللمس، يمكننا في الواقع إدراك مسافة الكائن. وينوه بأننا نتعلم من التجربة، بداءً من مرحلة الطفولة، أن بعض الإشارات البصرية ترتبط بمسافة. وفقاً لهذا التعبير يقول بيركلي: « إن الأحاسيس البصرية هي شارات لمس وضعها الله»[٧٥]. فمن خلال هذه الإشارات البصرية كما يعبر عنها بيركلي تم التركيز على نوع من الهندسة الطبيعية، بغية الحكم على نقطة تقاطع للمسافة سوى كانت قريبة أو بعيدة. وفي ضوء هذا المعطى فإن الإشارات تقترح لنا المسافة بشكلها الدائمي والفوري نرى بموجبها إلى أية مدى أبعد. ويشبه بيركلي هذا التصور المذكور أعلاه أشبه بالمراحل الأولية لتعلم اللغة، وكيف أن بعض الكلمات لها ارتباط بأفكار معينة، لذلك يقول: « ليس أكثر من أننا ندعي الحكم على أفكار إنسان، عن طريق نطق الكلمات التي لم نسمع بها من قبل»[٧٦]). والى جانب ذلك، إذا كانت الرؤية هي فقط اللغة، تحدث إلى العينين، قد يُسأل، متى تعلم البشر هذه اللغة؟ لاكتساب المعرفة بالعديد من العلامات، فيما يتعلق بصنع اللغة، هو عمل يصعب الحصول عليه. ولكن هل سيحرر أي رجل أو يقضي بعض الوقت أو يشعر بالألم لتعلم لغة الرؤية هذه؟ فلا عجب، « لا يمكننا تخصيص وقت خارج ذاكرتنا النائية. إذا كنا جميعًا نمارس هذه اللغة منذ دخولنا إلى العالم

إذا كان مؤلـف الطبيعة يتحدث باسـتمرار إلى أعين البشـرية جمعاء، حتى في أول طفولتهم، كلمـا كانت العيـن مفتوحـة في النور، سـواء بمفردها أو في الشركة ؛ لا يبدو لي غريباً على الإطلاق، أن البشر يجب ألا يدركوا أنهم تعلموا لغـة من أي وقت مضى، وبدأوا في وقت مبكر جداً، ومارسـتهم بشكل دائم، مثل هذه الرؤية... لماذا يجب على البشـر، الذيـن لا يفكرون، أن يكتشـفوا، بلغـة الرؤية هـذه، العلامـات التي تحمـل الأشـياء، بغض النظر عمـا هم متفقون علـى فعله، في العبارات اللغوية المختلفة، التي شـكلها العديد دول البشـر»[٧٧]. ومن ثم فالغاية الأساسـية في طرح بيركلي المتعلق «بالرؤيا» تهـدف إلى إظهار أن الكائنات المرئية لا وجود لها خارج العقل. وعلى أية حال، نرى من خلال العنوان لمقالته «نحو رؤية نظرية جديدة» بأنه لم يكن المقصود منها بصورة مباشـرة الكلمات المنطوقـة ومعانيها، بقدر مـا كانت موجه لفهم اللغة البصرية والأشـياء الملموسـة وما شـابه ذلك، فجهود بيركلي كانت مكرسـة لتجيب عن طـرح صيغة التسـاؤل الآتي: بالنظـر إلى أن « هـذا ما أراه هـو فقط مجموعـة متنوعة من الضوء والألوان. ما أشـعر به، صعب أو ناعم، حار أو بارد، خشـن أو أملس. ما صلة التشـابه هـذه الأفكار مـع هذه؟ أو كيـف يمكن أن يرى المـرء سـبباً، وأن يعطي نفس الاسـم، لمزيج مـن الأفـكار المتناقضة جـداً، قبـل أن يختبر تعايشـها؟»[٧٨]. يجيـب بيركلـي عـن ذلك من خلال القول إن البيانات البصرية(أي الأضواء والألوان في مواقف متنوعة) تسـتعمل من قبل البشر، ويفترض أن جميع الكائنات التي تبصر، نظام علامات لغرض تنظيم السلوك في السعي وراء المتعة وتجنـب الألم؛ وعلى هذا لا توجد روابط ضرورية بين كائنات الرؤية والأشـياء الملموسـة، كما لا توجـد روابط ضرورية بين السـمات المرئية والميزات المكانية، والعقل لا يسـتنتج الأخير من السـابق. وهذا ما عبر عنه بيركلـي، قائلاً: « مـن أجل التخلـص من هذا الظاهـر، نحتاج فقط إلى الملاحظـة، أن تنوع الكائنـات المرئية لا يسـتنتج بالضرورة، تنوع الكائنات الملموسـة، المقابلة لهـا»[٧٩]. ومن ثم هـذا الكم المتنوع من الأضواء والألوان، بحلته اللمسـية والمرئية لا يقوم بمعزل عن التجربة، فالتجربة هي الوسـيلة الأساسـية عند المدرسة التجريبية لبلوغ الهدف المنشود.

ونذكـر أن بيركلـي من جملـة معطياته في الإدراكات البصريـة التـي توصـل إليهـا في توضيـح اللغة الطبيعية، ومـن خلال التجارب الحسـية لفهم هـذا المغزى، أسـتطاع من تقديم حجة لوجود االربَّ، كمؤلف لهذه اللغة الطبيعية. وعليـه أحدى الاسـتنتاجات التـي توصل إليها مقال بعنوان» نحو نظرية جديدة للرؤية» «هو أن العالـم المرئـي ليس مجرد نظـام علامات يمكـن للإنسـان اسـتعمالها لتوقع الأحاسـيس اللمسـية، ولكنه في الحقيقة لغـة الربَّ، مؤلف الطبيعة»[٨٠] وهذا ما أشار إليه في الفقرة(١٢) مـن الحـوار الرابـع فـي كتابه(ألسـيفرون)، بقولـه:" بمـا أنـك لا تسـتطيع أن تنكـر، فإن المحرك العظيم ومؤلف الطبيعة(الربَّ) يفسـر نفسه باستمرار إلى أعين البشر، بالتدخل الحكيم للعلامـات الاعتباطيـة، التي ليس لهـا مثيل أو علاقـة، مع الأشـياء التي تدل علـى ذلك»[٨١]. ومحـاولات بيركلي الهادفة في نظريته الجديدة الغرض الأساسـي منها أبـراز أن الرؤية يجب أن تكون لغة. ولهذا ارتكزت فلسـفته الاسـمية علـى نظرية العلامات لتقديم معالجات فلسـفية بحسـب تصـوره، « لكن مـن المؤكـد أن كل الإشـارات ليسـت لغة. ولا حتى كل الأصوات الملموسة، مثل الصيحات الطبيعية للحيوانات، أو أصـوات وحركات الرجال غير المباشـرة.

هذا هو التعبير، الجمع، التنوع، الغزارة، الاستعمال الواسع النطاق والعامة، وعلامات التطبيق السهلة(كلها متداخلة في الرؤية) التي تشكل الطبيعة الحقيقية للغة. قد تعطي الحواس الأخرى علامات بالفعل. ومع ذلك، فإن هذه الإشارات لا تملك أي صواب أكثر من الأصوات غير المفترضة التي يعتقد أنها لغة»[٨٢]. في حين أن هذه اللغة الطبيعية، كما تسميها، أو هذه العلامات المرئية، تقترح دائمًا أشياء بطريقة الشهرة الموحدة، وتجمع الشهرة باستمرار مع المسائل الواقعية: من حيث يبدو، كان الأمر ضروريا، ومن ثم، وفقا للإزالة المعنوية، لا يمكن أن يكون هناك لغة[٨٣]. من الممكن الحصول على لغة الرؤية من خلال التجربة، ولكن لم يتم تعلمها من التجربة. هناك بالفعل اختلاف بين دلالة الأرقام الملموسة على الأرقام المرئية والأفكار بالكلمات: أنه في حين أن الأخيرة متغيرة وغير مؤكدة، وتعتمد كلية على التعيين الاعتباطي للبشر، فإن الأول ثابت وثابت. من نفس الشيء في جميع الأوقات والأماكن. فالساحة المرئية، على سبيل المثال، توحي للعقل نفس الرقم الملموس في أوروبا الذي يفعله في أميركا[٨٤]. ومن هنا، فإن صوت الطبيعة، الذي يتحدث إلى أعيننا، ليس عرضة لهذا التفسير الخاطئ والغامض، أن لغات البشرية التنافسية لا يمكن تجنبها بشكل لا يمكن تجنبه. من الذي يمكن، في بعض القياسات، أن تستمد هذه الأدلة الغريبة والوضوح في المظاهرات الهندسية[٨٥]. أن الأداة البصرية هدية من الباري عز وجل تنعمنا بها لرؤية الكون الفسيح والمخلوقات، ولهذا تعتبر لغة الرؤية هي هبة من العناية، تعطي لمساعدتنا في العيش كمخلوقات متجسدة في بيئة مكانية. على العموم، أعتقد بيركلي أننا قد نستنتج بشكل عادل، « أن كائنات الرؤية الصحيحة تشكل لغة عالمية للطبيعة، حيث يتم إرشادنا إلى كيفية تنظيم أعمالنا، من أجل تحقيق تلك الأشياء، التي تعتبر ضرورية للمحافظة ورفاهية أجسادنا، وكذلك لتجنب ما قد يكون مؤذاً ومدمراً لهم»[٨٦].

الخاتمة

وفي الختام، ما أودى أن أشير إليه بوجود نقطة رئيسية جوهرية في جميع مؤلفات بيركلي سوى في «مقال نحو رؤية جديدة» «مبادئ المعرفة الإنسانية» و «المحاورات الثلاثة بين هيلاس وفيلونس»، فجميعها يدور حول موضوعاً واحداً أنه لا توجد أفكار مجردة. وما تم تشخيصه في عقيدة الأفكار لدى بيركلي في مؤلفه « مقال نحو رؤية جديدة»، وفيما بعد أعلنت في مؤلفه الآخر «مبادئ المعرفة الإنسانية»، بأنه لا توجد كائنات خارج العقول. ما تمت ملاحظته في جميع مؤلفات بيركلي مهاجمته للفلاسفة ودعاة التنويري واصفاً إياهم بالملحدين والجاحدين الكفرة، وهذا من المفترض أن يكون سبباً رئيسياً لرفضه الأفكار المجردة التي قال بها خصمه من الفلاسفة، ومن هنا جاءت انتقاداته لنظرية المعاني، فسعى للإصلاح العيوب التي تسيء إلى المنظومة اللغوية على حد تعبيره. ذهب بيركلي إلى تحليل الحجج التجريدية والمادية، فنقد ورفض هاتين الفكرتين، مما قاده إلى الشك في وجود هذه الأفكار، بمعنى أن يكون هناك كائن يتمتع بإمكانية جبارة لمنح هذه الأفكار(المجردة)، وعلى حد قول بيركلي يرى أن القدير هو «الربَّ»، فهو المانح للأفكار الموجودة في الذهن، لا هؤلاء الفلاسفة وأفكارهم المظلمة. وفي نقد بيركلي للنظرية التجريدية، كانت تثار مشاكل مماثلة على سبيل المثال، الفكرة العامة المجردة لكلمة «مثلث» التي طرحت حولها

تســاؤلات حول وجودهــا من عدمــه، وما هو معناها. هذه الألغــاز والمخاوف دفعت بيركلي إلــى إعادة النظــر في النظريــة الفكريّة للمعنى الذي ورثه عن أســلافه. إن الطريقة التي يسير بها بيركلي في هذا الطريق هي مسألة نزاعات علمية كبيرة.

الهوامش

١- بشير خليفي: الفلسفة وقضايا اللغة، ص٦٥-٦٦.

٢- المصدر السابق، ص٦٦-٦٧.

3- Steven Nadler: A Companion to Early Modern Philosophy، p452.

4- Ibid، p452.

5- Ibid، p452.

6- Ifechukwu J. Ndianefoo: The World and the Limits of Language، p178.

7- Ibid، p179.

8- Ibid، p179.

٩- جــورج بيركلــي: المحــاورات الثلاث بيــن هيلاس وفيلونوس، ص٤٩.

١٠- ريتشــارد شاخت: رواد الفلسفة الحديثة، ص١٧٦-١٧٧.

١١- المصدر السابق، ص١٧٧.

12- Routledge Encyclopedia of Philosophy، Philosophy of Language، p132.

13- Ibid، p132.

١٤- غنار ســكيربك ونلز غيلجي، تاريخ الفكر الغربي: من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، ص٤٨٧.

١٥- المصدر السابق، ص٤٨٧-٤٨٨.

16- George Berkeley: A Treatise Concerning the Principles of Human Knowledge، p11.

17- Ibid، p12.

18- Ibid، p13.

19- Ibid، p12.

٢٠- فريال حسن خليفة: فكرة الألوهية في فلسفة بيركلي، ص١٠٣-١٠٥.

٢١- المصدر السابق، ص١٠٥-١٠٦.

22- George Berkeley: A Treatise Concerning the Principles of Human Knowledge، p12.

٢٣- وليم كلي رايت: تاريخ الفلســفة الحديثة، ص١٨٤-١٨٥.

٢٤- فريال حسن خليفة: فكرة الألوهية في فلسفة بيركلي، ص١٠٦-١٠٧.

٢٥- المصدر السابق، ص١٠٧.

٢٦- المصدر السابق، ص١٠٧.

٢٧- اميل برهييه: تاريخ الفلســفة(القرن الثامن عشــر)، ج٥، ص٤٣.

٢٨- محمــد جمــال طحــان: صنــاع تاريــخ الحضــارة الإنسانية عبر أعلامها، ص١٦٨.

29- Steven Nadler: A Companion to Early Modern Philosophy، p442.

30- John Locke: An Essay Concerning Human Understanding، p289.

31- Steven Nadler: A Companion to Early Modern Philosophy، p364.

32- Ibid، p364.

33- Lex Newman: Locke's " Essay Concerning Human Understanding"، p288.

34- John Locke: "Essay On Human Understanding" Philosophy of Language، p18.

35- George Berkeley: A Treatise Concerning the Principles of Human Knowledge، p12.

36- Ibid، p4.

37- Ibid، p14.

(*) الدير الشــهير خلال أواســط القرن الســابع عشــر، والمثقفون المتحلقون حوله أمثال باســكال وراسين. والمؤلفــات الصادرة عنه. ومنهــا بخاصة في أصل اللغــة: «النحــو العام». ينظــر: الكلمات والأشــياء

لميشيل فوكو.

38- George Berkley: Alciphron، or The Minute Philosopher، p336.

39- Ibid، p337.

40- George Berkeley: A Treatise Concerning the Principles of Human Knowledge، p6-7.

41- Ibid، p7.

42- Ibid، p7.

43- John Locke: An Essay Concerning Human Understanding، p289-290.

44-George Berkeley: A Treatise Concerning the Principles of Human Knowledge، p7.

45- Ibid، p7.

46- Ibid، p8.

47- Ibid، p8.

48- Ibid، p12.

49- Ibid، p12.

50- Ibid، p12.

51- Ibid، p8.

52- Ibid، p8.

53- Ibid، p8.

54- Ibid، p12.

55- Ibid، p12-13.

56- Ibid، p17.

57- Ibid، p13.

58- Ibid، p13.

59- Steven Nadler: A Companion to Early Modern Philosophy، p451.

٦٠- فريال حسن خليفة: فكرة الألوهية في فلسفة بيركلي، ص١٠٩.

61- George Berkeley: A Treatise Concerning the Principles of Human Knowledge، p58.

62- Ibid، p58.

63- Ibid، p58.

٦٤- فريال حسن خليفة: فكرة الألوهية في فلسفة بيركلي، ص١١٠-١١١.

65- Steven Nadler: A Companion to Early Modern Philosophy، p451.

66- George Berkeley: An Essay Towards A New Theory of Vision، p14.

67- Ibid، p14.

68- Ibid، p15.

69- Steven Nadler: A Companion to Early Modern Philosophy، p451.

70- George Berkeley: An Essay Towards A New Theory of Vision، p1.

71- George Berkeley: A Treatise Concerning the Principles of Human Knowledge، p29.

72- George Berkeley: An Essay Towards A New Theory of Vision، p12.

73- Ibid، p20.

74- ميشيل فوكو: الكلمات والأشياء، ص70.

75- George Berkeley: An Essay Towards A New Theory of Vision، p4.

76- George Berkley: Alciphron، or The Minute Philosopher، p168.

77- George Berkeley: An Essay Towards A New Theory of Vision، p28.

78- Ibid، p29.

79- George Berkeley: An Essay Towards A New Theory of Vision، p15-30.

80- George Berkley: Alciphron، or The Minute Philosopher، p169.

81- Ibid، p170.

82- Ibid، p170-171.

83- George Berkeley: An Essay Towards A New Theory of Vision، p41.

84- Ibid، p41.

85- Ibid، p40.

86- Ibid، p40.

قائمة المصادر والمراجع العربية

- بشـير خليفي: الفلسفة وقضايا اللغة- قراءة في التصور التحليلـي، منشـورات الاختلاف،الجزائـر، ط١، ٢٠١٠.
- جورج بيركلي: المحـاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس، ترجمـة وتقديم: يحيـى هويدي، مقدمة الطبعـة: محمـد مديـن، المركز القومـي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٥.
- ريتشارد شـاخت: رواد الفلسفة الحديثة، ترجمة: أحمد حمدي محمود، مكتبة الأسرة، القاهرة،١٩٩٧.
- غنار سـكيربك ونلز غيلجي، تاريخ الفكر الغربي: من اليونان القديمة إلى القرن العشـرين، ترجمة: حيدر حاج إسـماعيل، مركز دراسـات الوحـدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠١٢.
- فريال حسـن خليفة: فكرة الألوهية في فلسـفة بيركلي، مكتبة الجندي، القاهرة، ط١، ١٩٩٧.
- وليم كلي رايت: تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة: محمود سـيد أحمد، تقديـم ومراجعة: إمام عبـد الفتاح إمام، التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط٣، ٢٠١٦.
- اميل برهييه: تاريخ الفلسفة(القرن السابع عشر)، ج٥، ترجمـة: جورج طرابيشـي، دار الطليعـة للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٩٣.
- محمد جمال طحان: صناع تاريخ الحضارة الإنسـانية عبـر أعلامهـا، دار صفحات للدراسـات والنشـر، دمشق، ٢٠١٠.
- ميشـيل فوكـو، الكلمـات والأشـياء، فريـق الترجمة: مطاع صفـدي وآخـرون، مركز الإنمـاء القومي، بيروت،١٩٩٠.

المصادر الاجنبية

- Steven Nadler: A Companion to Early Modern Philosophy، Blackwell Publishing company، Main Street، Malden، USA، 2002.
- Ifechukwu J. Ndianefoo، The Woeld and the Limits of Language: The Philosopher‘s Concern with Language and Communication of Meaning، UJAH: Unizik Journal of Arts and Humanities، vol 12 No 2، 2011.
- Routledge Encyclopedia of philosophy، Philosophy of Language، Version 1.0، Landon and New York: Routledge، 1998.
- George Berkeley: A Treatise Concerning the Principles of Human Knowledge، London: Printed for Jacob Tonson، 1734. Edited by David R. Wilkins، 2002.
- George Berkley: Alciphron، or The Minute Philosopher، The First American، From The Fourth London Edition، 1803.
- - George Berkeley: An Essay Towards A New Theory of Vision(Based on the First Edition، Dublin، 1709)، Edited by David R. Wilkins،Dublin، 2002.
- John Locke: An Essay Concerning Human Understanding، Twenty-Seventh EditIon، London، 1836.
- John Locke: “Essay On Human Understanding” Philosophy of Language: The Big Questions. Ed. Andrea Nye. Blackwell Publishers Inc، 1998.
- Lex Newman: Locke’s “ Essay Concerning Human Understanding”، Cambridge University press، 2007.

George Berkeley's Philosophy of Language: an Analytical & Comparative Study

Researcher: Uday Ghazey Faleh

Asst. Prof. Kareem Hussein Al-Jaaf (PhD.)

Abstract

This article is concerned with the idealist experimentalist philosopher George Berkeley's philosophy of language; it is carried out by evidentially reviewing a number of clear clues in the light of his language philosophy, and the way he discusses the ideas of philosophers prior to his time. Moreover, the purpose of this article is to clarify Berkeley›s analytical discussions and his theory of names, language, and ideas; it also tackles Berkeley's discussions of the mathematical and scientific language.Last,it highlights what he introduces as visual language which, apart from his philosophical approach, he considers as extremely fascinating, as it describes «eye language» as the language of love and sense.

Keywords:George Berkeley,analytical andcomparative study, philosophy